قيس بن الخطيم
حياته من شعره

د٠ عمر أحمد صديق أحمد (*)

المقدمة :

أردت في هذا البحث أن أبحث حول شخصية شاعر كثر ذكره في المعاجم وكتب الأدب، إلا أن الحديث عنه وعن شخصيته في شعره لم يتم تناولها بشكل كبير في دراسات مستقلة، وهي شخصية الشاعر قيس بن الخطيم شاعر الأوس وفارسهم، المدافع عن قبيلته بسلاحه وشعره.

وكما نعلم أن للشعر الجاهلي أهمية كبيرة عند القدماء والمحدثين من الفقهاء والبلغاء وأهل اللغة جميعا، إذ إنه يعد اللغة العربية الخالصة التي وصلتنا من العرب قديما، وله الدور الكبير في تفسير القرآن الكريم وإرساء القواعد الصرفية والنحوية والبحور الشعرية والأساليب البلاغية المختلفة، وبما أن قيس بن الخطيم هو أحد الشعراء الجاهليين الفحول، فحري بنا أن نجتهد لدراسة شعره دراسة نموذجية؛ وذلك لمعرفة المكانة الشعرية للشاعر والجو العام الذي ساهم في بلورة شخصيته العلمية والأدبية.

ومن دوافع الاختيار لهذا الموضوع الرغبة في التعرّف على نشأة وحياة قيس ابن الخطيم، وأيضاً هل لنشأة قيس بن الخطيم علاقة بتميزه وإجادته لقول الشعر، ومعرفة الأسباب التي جعلت من الشاعر قيس بن الخطيم أحد الشعراء الفحول عند ابن سلام.

وانطلقت من إشكالية تتمثل في عدة تساؤلات، وهي كالآتي:

(*) قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب والعلوم الاجتماعية – جامعة السلطان قابوس.

- هل النشأة والتعليم في العصر الجاهلي كانت تقتصر على الفروسية وقول الشعر؟
- هل توجد علاقة بين كثرة الحروب وقول الشعر؟
- إلى أيّ مدى تُسهم قضية الثأر في قيام الحروب بين القبائل؟
- هل وجود منافس وند للشاعر قيس بن الخطيم كان له دور في إجادته للشعر؟

الفرضيات:

ومن هذا أفترض ما يلي:

- لما زادت الحروب زاد قول الشعر، إذ إنّه يوجد ما يستحق قول الشعر فيه كذكر بطولات ومآثر القبيلة.
- أنّ ما ساعد قيس بن الخطيم ليقول شعرًا رصينًا هو وجود منافس ألا وهو حسّان بن ثابت – رضي الله عنه– .

الأهداف:

يتمثل الهدف من هذه الدراسة فيما يلي:

- التعريف بشخصية قيس بن الخطيم.
- إبراز دور الحروب في تطوّر الشعر العربيّ.
- التعرّف على قصائد الشاعر قيس بن الحطيم.

الأهمية:

تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها منهجًا تاريخيًّا يبحث عن حياة الشاعر قيس بن الخطيم وطريقته في قول الشعر.

المنهج:

استخدمت في هذه الدراسة المنهج التاريخي الذي فرضته طبيعة الموضوع؛ إذ إنّ من خلاله يُمكن عرض الأحداث والوقائع التاريخية بطريقة علمية دقيقة، واستخدمت كذلك المنهج التحليلي لفهم قصائد الديوان وتحليلها.

المدوّنة (مجال الدراسة):

ديوان قيس بن الخطيم، وكتاب معجم الشعراء للمرزانيّ، وكتاب الأغاني للأصفهاني.

بيئة الشاعر وشخصيته:

قيس بن الخطيم بن عدي بن عمرو بن سواد[١] بن ظفر، ويرجع نسبه إلى الأزد (الجمهرة) ، وهو ينتمي إلى قبيلة الأوس المشهورة في الجاهلية والإسلام، وأصول هذه القبيلة في اليمن، إلا أن أهلها هاجروا إلى يثرب بعد انهدام سد مأرب.[٢]

نشأ قيس بن الخطيم في بيئة يسودها العداء الطويل، وهو العداء بين الأوس والخزرج وبينهم وبين اليهود، ولد سنة ٥٨٠م[٣] ، هذه الظروف كان لها دور كبير في شخصية قيس، فهو أحد صناديد العرب وأبطالها وشجعانها، عاش يتيما في حضن أمه لا يعرف عن مقتل أبيه شيئا، فأمه كانت تخاف عليه كثيرا من أن يقتل كما قتل أبوه حينما كان يريد أن يأخذ الثأر من أبيه أيضا، فكتمت عنه أمر قتل أبيه وجده، وكان قيس قويا في البنية وشديد الساعد "مقرون الحاجبين، أدعج العينين، أحمر الشفتين، براق الثنايا كأن بينهما برقا، ما رأته حليلة رجل قط إلا وذهب عقلها واستهوته"، وكان لقوته يتعارك مع فتيان قومه ويغلبهم، إلى أن غضب منه أحدهم وقال له: " والله لو جعلت شِدَّة ساعديك على قتلة أبيك وجدِّك لكان خيراً من أن تُظهرها علينا، فقال قيس: ومن قتل أبي وجدي؟ فقال الفتى: سل أمك تخبرك، ذهب قيس من فوره إلى أمه غاضباً، وقال لها: كيف مات أبي وجدي؟ فقالت: ماتا كما يموت الناس، فوضع سيفه على صدره وقال لها: لئن لم تخبريني من قتلهما لأقتلن نفسي. فقالت: أمَّا جدُّك فقتله رجل من بني عمرو بن

(١) الأغاني، ج٣، ص: ١.
(٢) الأغاني، ج٢٢، ص: ١٠١-١٠٢.
(٣) تاريخ الأدب العربي، ص: ٣٤٣-٣٤٤.

عامر بن ربيعة يقال له: مالك ، وأمَّا أبوك فقتله رجل من عبد القيس ممن يسكن هجر. فقال : والله لا أرتاح ولا ترين وجهي حتى أقتل قاتلي أبي وجدي، فقالت: يا بني، ما دام الأمر على ذلك فإن مالكاً قاتل جدك من قوم –خداش بن زهير –، ولأبيك عند خداش نعمةٌ هو لها شاكر، فأته فاستشره في أمرك، واستعنه على ذلك يُعِنك ". وذهب قيس على جمله حاملا معه حملين تمرا، وطلب من قومه أن يكفلوا أمه وينفقوا عليها من بستانه إن مات حتى تموت هي ثم يأخذ من كفلها البستان، وإن عاش يرجع إليه بستانه ولكافل أمه أن يأكل منه كما يشاء، فخرج إلى خداش كما أخبرته أمه ووفى خداش بشكر نعمة والد قيس، حيث أعانه على قتل قاتلي أبيه وجده والأخذ بثأرهما، وفعل ذلك قيس وقال قصيدته المعروفة[1]:

تَـذَكَّرَ لَيلـى حُـسنَها وَصَـفاءَها ... وَبانَـت فَأَمـسى مـا يَنـالُ لِقاءَهـا
وَمِثلِـكِ قَـد أَصـبَيتُ لَيـسَت بِكَنَّـةٍ ... وَلا جـارَةٍ أَفـضَت إِلَـيَّ حَياءَهـا
إِذا مـا اِصـطَحَبتُ أَربَعـاً خَـطَّ مِئـزَري ... وَأَتبَعتُ دَلـوي فـي الـسَخاءِ رِشـاءَها
ثَـأَرتُ عَـدِيّاً وَالخَـطيمَ فَلَـم أُضِـع ... وِلايَـةَ أَشـياءٍ جُعِـلتُ إِزاءَهـا
ضَـرَبتُ بِـذي الـزِرَّينِ رِبقَـةَ مالِـكٍ ... فَأُبـتُ بِـنَفسٍ قَـد أَصَـبتُ شِـفاءَها
وَسامَحَني فيها اِبنُ عَمروِ بنِ عامِرٍ ... خِـداشٌ فَـأَدّى نِعمَـةً وَأَفـاءَها
طَعَنـتُ اِبـنَ عَبـدِ القَـيسِ طَعنَـةَ ثـائِرٍ ... لَهـا نَفَـذٌ لَـولا الـشُعاعُ أَضـاءَها
مَلَكـتُ بِهـا كَفّـي فَـأَنهَرتُ فَتقَهـا ... يَـرى قائِمـاً مِـن خَلفِهـا مـا وَراءَهـا
يَهـونُ عَلَـيَّ أَن تَـرُدَّ جِراحُـهُ ... عُيونَ الأَواسي إِذ حَمِدتُ بَلاءَها"[2]

وقد جاء في كتاب الأغاني لأبي الفرج أن حسان بن ثابت طلب من الخنساء أن تهجي قيسا، وهي لا تهجو إلا بعد أن ترى ذلك الشخص، فلما رأته في يوم ما وجدته نائما في غرفة، فنسخته برجلها وقالت له: قم فقام ثم طلبت منه الإدبار

(١) الأغاني، ج.٣، ص: ٤-٨.

(٢) ديوان قيس بن الخطيم، ص: ٤٣-٤٦.

والإقبال كأنها تعرض عبدا للشراء وهو يلبي طلبها، ثم قالت: "لا أهجو هذا أبدا"، فقيس رجل مكتمل الخلق والخلقة كما عرفنا وفارس قوي من فرسان العرب في الجاهلية.(١)

موقف قيس بن الخطيم من الإسلام:

في الوقت الذي جاء فيه الإسلام، كانت العرب منغمسة في جاهليتها وشركها ووثنيتها، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم بدعوته لهم إلى الإسلام، وانقسم العرب إلى مؤيد له متقبل للإسلام، وإلى معارض شديد التعرض له، وقيس بن الخطيم وقف موقفا وسطا، فهو لم يعادي الإسلام ولا النبي صلى الله عليه وسلم لا في شعره ولا في قوله، بل كان لين القول والفعل، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى الإسلام وإلى ترك الخمر والتلذذ بالنساء، فيجيب قيس أنه سينظر في أمره ويلبي الدعوة الحول القادم إلا أنه مات قبل ذلك.(٢)

قصة مقتله:

لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم صالح بين العرب وآخى بينهم، ومن هؤلاء الأوس والخزرج الذين طال العداء والحروب بينهم زمنا طويلا، وبمجيئه صلى الله عليه وسلم توقفت الحروب واستقرت الأوضاع في المدينة، وتذكرت الخزرج قيسا وما فعل بهم عندما أراد الأخذ بثأر أبيه وجده، وتوعدوا بقتله، وفي عشية يوم من الأيام خرج قيس من بيته في حاجته، وفي طريقه مر بأطم بني حارثة وكان نفر من الخزرج يختبئون في الحصن، فلما رأوه رموه بأسهمهم فأصابته ثلاثة أسهم أحدها في صدره، فوقع قيس طريح الأرض وصاح صيحة مدوية سمعه قومه فهرعوا إليه وحملوه إلى منزله، ورأى قوم قيس أن أبا صعصعة يزيد بن عوف الكفء المناسب لقيس، فاغتاله أحد رجال الأوس وقتله وحمل رأسه إلى قيس،

---

(١) الأغاني، ج.٣، ص:١١.

(٢) الأغاني، ج.٣، ص: ١٢.

ففرح قيس بمقتله وارتاح، ولم يمض وقت طويل حتى مات قيس، وكان ذلك قبل الهجرة بسنتين.[١]

أيام الأوس والخزرج وأثرها على قيس بن الخطيم:

كان المجتمع العربي في الجاهلية يعيش ظروفا اقتصادية واجتماعية وسياسية متنوعة، جعلت منه مجتمعا مضطربا، وكانت الحروب الدامية الناتجة عن التعصب القبلي كثيرة، فالقانون الذي يسودهم هو ضرورة الانتقام و الأخذ بالثأر، فكانت القبيلة كلها تقف مع رجل من قومها ليأخذ بثأره من القبائل الأخرى، وقد تتحالف مع تلك القبيلة قبائل أخرى وهكذا، فتنشأ الحروب التي من الصعب إيقافها، فالأخذ بالثأر عندهم شيء مقدس لا يستطيع أحد الوقوف ضده.

جاء في لسان العرب[٢] ذكر معنى الأيام، وهي الوقائع والحروب؛ وذلك أن اليوم يشير إلى النهار من طلوع الشمس إلى غروبها، وتلك الحروب كانت تحدث في النهار.

وكانت العرب تطلق على تلك الأيام مسميات معينة، فقد تسمي الموقعة باسم عين ماء قريبة من مكان الوقوع، أو باسم من كان له أثر واضح في تلك الموقعة سواء رجل أو امرأة، أو تسيمها بصفتها كحروب الفِجار.[٣]

ومن تلك الأيام، أيام الأوس والخزرج الذين كانوا يعيشون في وفاق ووئام في المدينة، إلا أن الذي أشعل الحرب بينهم هم اليهود الذين لا هم لهم سوى القضاء على كل عنصر غير يهودي في المدينة، فعملوا على دس الدسائس بين القبيلتين، فنجحوا في أمرهم وقامت الحروب التي دامت زمنا طويلا، إضافة إلى ذلك أن

---

(١) الأغاني، ج.٣، ص:١٢-١٣.

(٢) لسان العرب: مادة يوم.

(٣) الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي: ١١٠- ١١١.

عامل السياسة والرغبة في الرياسة والعامل الاقتصادي والثأر أيضا من أسباب نشوب الحرب بين القبيلتين.(١)

سأذكر هنا بشكل ملخص الحروب التي كانت بين الأوس والخزرج:

أولاً: حرب سُمير:

وسُميت بذلك نسبة إلى رجل من بني عمرو بن عوف من الأوس يدعى سُميرا، وذلك أنه غضب من قول كعب بن العجلان من بني ثعلبة من سعد بن ذبيان حين قال: إن حليفه مالكا أفضل أهل يثرب، ثم تبع سُمير كعبا إلى سوق بقباء وقتله، فوصل خبر مقتل كعب إلى مالك بن العجلان فتألم وغضب غضبا شديدا، ومالك رجل حكيم كان له الفضل في غلبة الأوس والخزرج على اليهود، فأرسل إلى بني عمرو بن عوف يطلب قاتل كعب، فردوا عليه أنهم لا يعرفون من قتله، فازداد غضبه لأنه يعرف القاتل، فأرسل إليهم يطلب سُميرا ليقتله، فرفضوا ذلك بحجة أنه ليس هناك دليل يثبت قتل سُمير كعبا، وعرضوا عليه الدية، فقبلها مالك، ثم قالوا: إن كعبا حليف وليس لكم في مقتله إلا نصف الدية، فغضب مالك ورفض ذلك وثارت الحرب بينهم واستمرت قرابة العشرين سنة، إلى أن حكموا بينهم ثابت بن المنذر بن حرام والد حسان بن ثابت، ودفعت الدية إلى مالك وسكنت الحرب ظاهريا إلا أنها تركت في النفوس غيظا وحقدا.(٢)

وفي هذه الحرب، قال قيس بن الخطيم مفاخرا الخزرج:(٣)

صـــرمت اليـــوم حبلـــك مـــن كنـــودا لتُبـــــدل حبلهـــــا حـــــبلا جديـــــدا

مـــن اللائـــي إذا يمـــشين هونـــــا تجلببن المجاسد والبرودا

---

(١) الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي: ١٤٨.

(٢) الكامل لابن الأثير، ج١: ٦٥٨-٦٥٩.

(٣) الديوان: ١٤٥-١٤٦.

ثانياً: حرب كعب بن عمرو المازني:

هذه الحرب وقعت بين بني مازن بن النجار من الخزرج، وبني جحجبى من الأوس، وسببها هو مقتل كعب بن عمرو من قبل جماعة أمرهم بذلك سيد بني جحجبى أحيحة بن الجلاح، فغضب أخوه عاصم بن عمرو وخرج هو ومن معه من بني النجار وأرسلوا إلى جحجبى يؤذنوه بالحرب، فخرج إليهم ببني عمرو بن عوف والتقوا بأطم من أطام المدينة يقال لها الرحابة واقتتلوا اقتتالا شديدا وانهزم أحيحة ومن معه وكان النصر للخزرج في هذه الحرب.(١)

ثالثاً: يوم السرارة:

سميت بذلك نسبة إلى مكان وقوع الحرب، وسببها أن رجلا من بني الحارث قتل رجلا من بني عمرو، فقتل بنو عمرو القاتل غيلة، ولما علم أهله بمقتله تهيأوا للقتال وأرسلوا لبني عمرو يؤذنونهم بالقتال، والتقوا بالسرارة واقتتلوا لمدة أربعة أيام، ثم رجعت الأوس إلى ديارهم.(٢)

رابعاً: حرب الحصين بن الأسلت:

سميت بذلك نسبة إلى الحصين بن الأسلت أخ أبي قيس بن الأسلت الشاعر المعروف، حيث إن حصينا قتل رجلا بني مازن بن النجار، فقتل بنو النجار الحصين جزاء فعله، فعلم بذلك أخوه قيس وغضب وجمع قومه من بني وائل ابن زيد من الأوس، وآذن بني مازن بن النجار من الخزرج بالحرب، واقتتلوا أشد القتال وقتل من الفريقين الكثير من الرجال، وانتهت الحرب بخسارة الأوس.(٣)

---

(١) الكامل لابن الأثير، ج١ :٦٦٠-٦٦٢.

(٢) الكامل لابن الأثير، ج١ : ص ٦٦٢-٦٦٥.

(٣) الكامل لابن الأثير، ج١: ٦٦٥-٦٦٦.

خامساً: حرب ربيع الظفري:

سميت بذلك نسبة إلى ربيع الظفري الذي كان مارًّا في مال لرجل من رجال بني النجار قاصدا ملكا له، فمنعه الرجل فقتله ربيع، ثم ثارت الحرب والتقى بنو مالك بن النجار الخزرجيين ببنى ظفر الأوسيين واقتتلوا أشد قتال.(١)

سادسًا: حرب فارع:

سميت بذلك نسبة إلى مكان في المدينة اسمه فارع، وسبب الحرب هذه هو أن رجلا من بني النجار قتل جار معاذ بن النعمان بن امرئ القيس، فغضب معاذ من ذلك وأرسل إلى بني النجار أن يرسلوا إليه بقاتله أو أن يدفعوا دية جارة، ولكن بني النجار رفضوا الخيارين فقامت الحرب بينهم، ولم تهدأ إلا حينما دفع دية الرجل عمرو بن الإطنابة.(٢)

سابعًا: حرب حاطب:

هذه الحرب كانت آخر حرب بين الأوس والخزرج، وامتدت طويلا إلى أن جاء الإسلام وحدث الصلح بينهم، وسببها أن رجلا من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان أتى حاطبا بن الحارث بن قيس وأقام عنده، وفي يوم ما ذهب إلى سوق بني قينقاع فرآه يزيد من بني الحارث الخزرجي وقال لرجل يهودي هناك أن يقتله وسيعطيه رداءه، فقتله اليهودي ولما علم حاطب بذلك جاء إلى السوق وسأل عن القاتل فأخبر وقتل اليهودي، ثم اقتتل الفريقان وكان عمرو بن النعمان البياضي على الخزرج وحضير بن سماك الأشهلي على الأوس، والتقوا عند جسر ردم بني الحارث، وسمي هذا اليوم بيوم الجسر، وتلته أيام كثيرة كان آخرها يوم بعاث.(٣)

من المعروف أن الشاعر أحد أفراد قبيلته، عليه ما عليهم وأكثر، إذ عليه أن يشاركم في الدفاع عن القبيلة والحفاظ على مكانتها وشرفها وممتلكاتها لتبقى قبيلة

(١) الكامل لابن الأثير، ج١: ١٦٦.
(٢) الكامل لابن الأثير، ٦٦٨ -٦٧١.
(٣) الكامل لابن الأثير، ج١: ٦٧١-٦٨١.

قوية لها شأنها ومكانتها بين القبائل الأخرى، وشخصية الشاعر تختلف عن غيرها في كونها شخصية مزدوجة؛ أي شخصية فردية وشخصية جماعية في وقت واحد، ومن حيث الشخصية الفردية فالشاعر إنسان ذو شخصية حساسة، وفي الوقت نفسه إنسان في مجموعة عليه واجبات معنوية ومادية اتجاهها، والشاعر الذكي هو الذي يلم بكل الأشياء والمعلومات عن خصومه ويوظفها في شعره على شكل قوالب مختلفة ليؤثر عليهم وعلى معنوياتهم، إذ من خلال الشعر يستطيع أن يبعث أولى شرارات الحرب أو أن يهدئ الغضب في النفوس ويصفيها أو أن ينذر ويحذر الآخرين بالمخاطر المختلفة وما ستؤول إليه نتائج الحرب، وغيرها من الأمور الأخرى.

إن كل قبيلة تهتم بأن يكون أحد أفرادها شاعرا، وذلك ليكون لسانها الناطق باسمها والمفاخر بإنجازاتها وانتصاراتها، لذلك نجد القبائل تسعى لشهرة شعرائها؛ لأنهم يمثلون الواجهة الإعلامية لكل قبيلة، وقيس بن الخطيم كان يمثل الأوس وهو شاعرهم، وتلك الأيام التي دارت بينهم وبين الخزرج كان لها كبير الأثر على نفس الشاعر وساهمت في إثارة عواطفه، فقد كان في المعارك فارسا قويا ولقبيلته محرضا ومشجعا ونجده يصف الأحداث ويذكرها في شعره سواء أكان النصر لقبيلته أو للقبيلة الأخرى.

إننا إذا نظرنا إلى شعر قيس بن الخطيم، سنجد أن هناك أدوارا بارزة لعبها قيس في تلك الأيام، من بينها:

١- **الإصلاح:** إن سمة الإصلاح لدى الشعراء لا تكون إلا لشاعر يعد سيدا في جماعته وقبيلته، وهذه السمة كانت بارزة في شعر قيس بن الخطيم؛ لأنه كان سيدا، ولأن بين الأوس والخزرج قرابة تجمعهم وإن حدثت الحروب بينهم لأي سبب إلا أن شعور القرابة والدم يبقى حاضرا، ويحاول الشاعر تحذير قومه من العواقب

والنتائج التي تلي هذه الحروب، وكان الدور الإصلاحي الذي قام به قيس كبيرا، وذلك جلي في شعره، إذ يقول:

دعـوت بنـي عـوف لحقـن دمـائهم فلمّا أبوا سامحت في حرب حاطب
وكنـت امـرأً لا أبعـث الحـرب ظالمـا فلمـا أبـوا أشـعلتها كـل جانـب
أربـت بـدفع الحـرب حتـى رأيتهـا مـن الـدفع لا تـزداد غيـر تقـارب
فإذ لـم يكـن عن غايـة المـوت مـدفع فـأهلا بهـا إذ لـم تـزل فـي المراحـب
فلمـا رأيـت الحـرب حربـا تجـردت لبست مـع البردين ثوب المحارب"(١)

إن الدور الإصلاحي يتضح بصورة كبيرة في هذه الأبيات، فهو كان يحاول أن يمنع من وقوع الحرب لتحقن دماء الناس، ويقول أنه إذا فشلت تلك المحاولات جميعها فأهلا بالحرب، فهو شاعر شجاع، ومن خلال شعره نلاحظ أيضا أن دوره الإصلاحي لم يقتصر على قبيلته فحسب، بل تعدى ذلك لإصلاح المشاكل والخلافات مع القبائل الأخرى والسعي لعدم نشوب أي حرب.

٢- **التحريض:** من الطبيعي أن يكون كل شاعر في قبيلته محرضاً لقومه ومحمساً لهم على القتال قبل الحرب وأثنائها، فكلماته تساهم في رفع معنويات قومه وفي الوقت ذاته تثبط عزيمة الخصم، فهو يقول:

فلـست لحاصـن إن لـم ترونـا نجـادلكم كأنـا شـرب خمـر(٢)

٣- **الإرشاد والنصح:** قيس بن الخطيم شاعر مثقف، وصلته عميقة بقومه فهو دائما يوجه قومه لما ينير لهم الطريق، فنجده يقول في يوم بعاث:

فـلا أعـرفكم بعـد عـز وثـروة يقـال ألا تلـك النبيـت عـساكر
فـلا تجعلـوا حربـاتكم فـي نحـوركم كمـا شـد ألـواح الرتـاج المـسامر(٣)

---

(١) الديوان، ص: ٨١-٨٢.

(٢) الديوان، ص: ٨٢.

(٣) الديوان، ص: ٢٠٨-٢٠٩.

فالشاعر يدعو قومه هنا ليبقوا متلاحمين دائما ومتماسكين لتبقى لهم السيادة.

٤- **التحذير والوعيد:** الوعيد يكون للخصم، وذلك كأن يتوعدهم بالتنكيل بهم وقتلهم ، أما التحذير فيكون لقومه، كأن يحذرهم من العدو ومباغتاته، وأيضا يحذر من عواقب هذه الحروب، فنجده يقول:

فمن مبلغ عني شريد بن جابر رسولا إذا ما جاءه وابن مرثد

فأقسمت لا أعطي يزيد رهينة سوى السيف حتى لا تنوء له يدي(١)

ويقول أيضا:

وإن تغدو بنا غطفان نردف نساءهم ونقتل كل صقر(٢)

فالوعيد واضح بقوة في هذه الأبيات من خلال رسائله التي يوجهها لأعدائه.

وهناك العديد من الأدوار الأخرى التي لا داعي لذكرها هنا، فالشاعر فارس قوي من فرسان الأوس وسيدهم، فأدواره كثيرة تحتاج إلى شيء من الدراسة والعمق.

منزلة قيس بن الخطيم الشعرية:

قيس بن الخطيم أحد الشعراء المخضرمين الأوسيين وفارس من فرسان العرب، كانت له منزلته الشعرية البارزة في الكتب والأخبار المنقولة عن العرب قديما، فابن سلام الجمحي في كتابه "طبقات فحول الشعراء" قد أدرجه ضمن "شعراء المدينة في طبقة شعراء القرى العربية"، وحسب ابن سلام فإن أهل المدينة في ذلك الوقت هم الأقوى شعرا من غيرهم.(٣)

وذكر في كتاب الأغاني أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس ذات مرة إلى أصحابه وهم يستمعون الشعر والشعراء، واستنشدهم النبي صلى الله عليه وسلم قول قيس بن الخطيم:

---

(١) الديوان، ص: ١٣٠.
(٢) الديوان، ص: ١٣٨.
(٣) طبقات فحول الشعراء، ج.١، ص: ٢١٥.

أتعــرف رســما كــاطراد المــذاهب لعمــرة وحــشا غيــر موقــف راكــب

فأكملها بعض الجالسين إلى أن وصل إلى قوله :

أجالــدهم يــوم الحديقــة حاســرا كــأن يــدي بالــسيف مخــراق لاعــب

فسألهم النبي صلى الله عليه وسلم: أكان كما قال فرد عليه ثابت بن قيس بن شماس وقال: "والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد خرج إلينا يوم سابع عرسه عليه غلالة وملحفة مورَّسة فجالدنا كما ذكر"، وقد استحسن أبو الفرج هذه القصيدة وعدها من جيد ما قال قيس بن الخطيم، وأنها مما استحسنه النابغة الذبياني وفضله وأنشده.(١)

وقد أورد المرزباني في معجمه قولا لحسان بن ثابت يقول فيه: "إنا إذا نافرتنا العرب فأردنا أن نخرج الحبرات من شعرنا أتينا بشعر قيس بن الخطيم".(٢)

وأيضا أورد أبو الفرج رواية تصل إلى حسان أنه لما قدم النابغة المدينة ودخل سوق بني قينقاع، فنزل من أعلى راحلته وجلس جاثيا على ركبتيه وقال:

عرفــــت منــــازلا بعرتينــــات فــأعلى الجــزع للحــي المــبن

أنشدها إلى آخرها ثم قال: "ألا رجل ينشد"، فجاء قيس بن الخطيم وجلس بين يديه وأنشد يقول:

أتعــرف رســما كــاطراد المــذاهب

إلى أن أتمها، فقال له النابغة:

أنت أشعر الناس يابن أخي(٣)

---

(١) الأغاني، ج.٣، ص: ٩-١٠.

(٢) معجم الشعراء، ص:١٩٦.

(٣) الأغاني، ج.٣، ص:١٠-١١.

موضوعاته الشعرية:

إن المتصفح لشعر قيس بن الخطيم يلاحظ تنوع الأغراض الشعرية وتعددها في قصائده ومقطوعاته الشعرية، ولأن شخصية قيس تمتاز بالشجاعة والفروسية نجد أن للحروب التي كانت بين الأوس والخزرج كبير الأثر على أغراض شعره، ومن الموضوعات البارزة في شعره المدح والهجاء والفخر والغزل والوصف والحكمة، وكان الفخر من أكثر الأغراض التي برزت في شعره، وقد نجد أيضا تعدد الأغراض في القصيدة الواحدة في شعره، فهو شاعر فحل مجيد في قول الشعر، يحسن ربط الموضوعات في قصيدة واحدة متناسقة وأجزاؤها متلاحمة، والمتأمل أيضا في شعره يجد أن ما يقوله قيس يعكس صورة لحياته الوجدانية والنفسية والعقلية، وسأتطرق هنا بشيء من التفصيل إلى الأغراض الشعرية عند قيس:

أولا: الفخر:

الفخر كما جاء عند ابن منظور هو "التمدح بالخصال والافتخار وعد القديم"[1]، والفخر يشمل الكثير من جوانب الحياة، فالإنسان قد يفخر بنفسه وبأهله وقبيلته وبماله وجاهه، والعرب قديما كانت تكثر من ذلك، لأنه من أسباب قوة القبيلة ومكانتها بين القبائل الأخرى، والمتأمل في شعر قيس يجد أن فخره اشتمل على الفخر بنفسه وفروسيته وأمانته وعدله وثباته رغم الظروف، بل ويتعدى إلى الفخر بالقبيلة ومكانتها وقوتها، وقيس أحسن الأوس شعرا وله عندهم مكانة كبيرة ومنزلة رفيعة، ولنقسم حديثنا حول الفخر في شعره إلى فخره بنفسه وفخره بقبيلته.

- فخره بنفسه:

مكانة قيس ومنزلته عند قومه أشعرته بقيمته، وهو سيد في قومه، وهذا ما جعله يزهو بنفسه وببطولاته وشهامته وخصال الخير في شخصيته، ككرمه

(١) لسان العرب، مادة فخر.

ومروءته ووفائه وإبائه وغيرته على قبيلته وفروسيته، وهذه الأخيرة نجده يقول عنها:

تَـذَكَّرَ لَيلـى حُـسنَها وَصَـفاءَها وَبانَـت فَأَمـسى مـا يَنـالُ لِقاءَهـا
وَمِثلِـكِ قَـد أَصـبَيتُ لَيـسَت بِكَنَّـةٍ وَلا جـارَةٍ أَفـضَت إِلَـيَّ حَياءَهـا
إِذا مـا اِصـطَحَبتُ أَربَعـاً خَـطَّ مِئـزَري وَأَتبَعـتُ دَلـوي فـي الـسَخاءِ رِشـاءَها
ثَـأَرتُ عَـدِيّاً وَالخَطـيمَ فَلَـم أُضِـع وِلايَةَ أَشياءٍ جُعِلتُ إِزاءَها

ضَـرَبتُ بِـذي الـزِرَّينِ رِبقَـةَ مالِـكٍ فَأُبتُ بِنَفسٍ قَد أَصَبتُ شِفاءَها
وَسامَحَني فيها اِبنُ عَمروِ بنِ عامِرٍ خِـداشٌ فَـأَدّى نِعمَـةً وَأَفاءَهـا
طَعَنتُ اِبنَ عَبدِ القَيسِ طَعنَةَ ثائِرٍ لَهـا نَفَـذٌ لَـولا الـشُعاعُ أَضـاءَها
مَلَكـتُ بِهـا كَفّـي فَـأَنهَرتُ فَتقَهـا يَـرى قائِمـاً مِـن خَلفِهـا مـا وَراءَهـا
يَهـونُ عَلَـيَّ أَن تَـرُدَّ جِراحُـهُ عُيونَ الأَواسي إِذ حَمِدتُ بَلاءَها[1]

هذه القصيدة قالها قيس عندما قتل قاتل والده وجده، وقد استهلها بمقدمة غزلية، وفي ذلك دلالة على الفخر بالذات، فالغزل أكثر ما يلائم قصائد الفخر، ففي مقدمته يبين أنه تمكن من إمالة قلوب الكثير من النساء، بل وكشف عن أسرارهن، فهو يمهد بذلك إلى الغرض الأساسي من قصيدته وهو الفخر بفروسيته وقوته وبطولته، ثم يذكر الخمرة وما عاشه من شعور بعد شربه إياها، إلا أن الخمرة والنساء لم ينسياه مقصده ومراده، فانتقل سريعا للحديث عن فروسيته وفخره بها، ويبين شدة ما أصاب المقتول إثر وقع السيف عليه كأنها فتحت في جسمه نافذة ترى من بعيد، ثم يستدرك القول فيفخر بنفسه ومكانته بين قومه، وأن من قوة شجاعته كان السيف هو ما يشفي غليله ومرضه، فيقول:

وَكُنـتُ اِمـرِأً لا أَسـمَعُ الـدَهرَ سُـبَّةً أُسَـبُّ بِهـا إِلّا كَـشَفتُ غِطاءَهـا

(١) الديوان، ص: ٤١-٤٥.

وَإِنِّـيَ فـي الحَـربِ الـضَّروسِ مُوَكَّـلٌ بِإِقــدامِ نَفــسٍ مــا أُريــدُ بَقاءَهــا
إِذا سَـقِمَت نَفـسي إِلــى ذي عَـداوَةٍ فَإِنّي بِنَصلِ السَّيفِ باغٍ دَواءَها
مَتـى يَـأتِ هَذا المَـوتُ لا تَبـقَ حاجَـةٌ لِنَفسِيَ إِلّا قَد قَضَيتُ قَضاءَها

وَكانَت شَجاً في الحَلقِ ما لَم أَبُؤ بِها فَأُبتُ بِنَفسٍ قَد أُصِبتُ دَواءَها
وَقَـد جَرَّبَـت مِنّــي لَـدى كُـلِّ مَـأقِطٍ دُحَيٌّ إِذا ما الحَربُ أَلقَت رِداءَها
وَإِنّــا إِذا مــا مُمتَـرو الحَـربِ بَلَّحــوا نُقيمُ بِأَسبادِ العَرينِ لِواءَها
وَنُلقِحُهـــا مَبـــسورَةً ضَـــرزَنِيَّةً بِأَســيافِنا حَتّـــى نُـــذِلَّ إِباءَهـــا
وَإِنّــا مَنَعنــا فــي بُعــاثٍ نِــساءَنا وَما مَنَعَت مِنَ المُخزِياتِ نِساءَها[1]

ونجده يصف نفسه أنه لا يهاب الموت، فهو مطمئن لبطولاته التي حققها، ثم يستطرد حديثه للفخر بقومه وعشيرته ويلقبهم بالأسود والغيورين على نسائهم وأنهم أهل خبرة في الحروب.

وفي قصيدة أخرى يفخر قيس بعدله، وهذا أمر طبيعي، فهو سيد في قومه وشريف من أشراف الأوس، فيقول:

إلا مـــن مبلـــغ الـــشعراء عنـــي فلا ظلم لدي ولا ابتداء
ولـــست بعـــابط الأكفـــاء ظلمـــا وعنـــدي للملمـــات اجتـــزاء[2]

وأيضا في موضع آخر من ديوانه نجده يفخر بأمانته ويدعو إلى حفظ السر، فقيس شاعر نرجسي يحب أن يفخر بما يميزه عن غيره من الشعراء، لذلك نجده يقول:

يـا عمـرو إن تـسد الأمانـة بيننـا فأنا الذي غن خنتها يرعاها
يـا عمـرو لـيس أخـو الأمانـة بالـذي مـــا رابـــه مـــن خطـــة أفـــشاها

(١) الديوان، ص:٤٥-٥٠.
(٢) الديوان، ص١٥٤- ١٥٥.

يـــا عمـــرو إن أخـــا الأمانـــة كـــاتم لـــو يـــستطيع بجلـــده أخفاهـــا[١]

وفي موضع آخر نجد الشاعر يفخر بصفات أخرى من صفاته وهي صفة الثبات والجلد عند المصائب، وكذلك أنه رجل وسط في تعامله مع الأمور المختلفة شدة ولينا، وأنه يعاشر خيار الناس وأحسنهم ، إذ يقول في ذلك:

فـــذلك مـــا قـــد تعلمـــين وإننـــي لجلد على ريب الخطوب متين
أمـــر علـــى البـــاغي ويغلـــظ جـــانبي وذو القـــصد أحلـــولي لـــه وألـــين
وإنـــي لأعتـــام الرجـــال بخلتـــي أولي الرأي في الأحداث حين تحين[٢]

هذه الصفات التي تطرقت للحديث إليها غيض من فيض من صفات قيس بن الخطيم، فلا يسعني هنا ذكرها جميعها، فهي تحتاج لدراسة خاصة.

- فخره بعشيرته وقبيلته:

أما عن فخره بجماعته، فمن المعروف أن الشعراء الجاهليين متعصبون كثيرا لقبائلهم، وهذا التعصب نجده بارزا في شعرهم، فيفخرون بقوة القبيلة وأمجادها ومناقبها ومكانتها بين القبائل، وما قيس إلا واحد من هؤلاء الشعراء الذين ينتمون لعشيرتهم انتماء كاملا ويسعون للذود عنها والحفاظ عليها بكل ما أوتوا من قوة، وفي فخره بقبيلته نجده يقول:

وَنَحـــنُ الفَـــوارِسُ يَـــومَ الرَّبـــي عِ قَد عَلِموا كَيفَ فُرسانُها
جَنَبنـــا الحِـــرابَ وَراءَ الـــصَّري خِ حَتّـــى تَقَـــصَّفَ مُرّانُهـــا
فَلَمّـــا اِســـتَقَلَّ كَلَيـــثِ الغَـــري فِ زانَ الكَتيبَةَ أَعوانُها
تَـــراهُنَّ يُخلَجـــنَ خَلـــجَ الـــدِّلا ءِ تَخـــتَلِجُ النَّـــزعَ أَشـــطانُها
وَلاقـــى الـــشَّقاءَ لَـــدى حَربِنـــا دُحَـــيٌّ وَعَـــوفٌ وَإِخوانُهـــا
رَدَدنـــا الكَتيبَـــةَ مَفلولَـــةً بِهـــا أَفنُهـــا وَبِهـــا ذانُهـــا

(١) الديوان، ص: ٢١٥.

(٢) الديوان، ص: ١٦٦.

وَقَـــد عَلِمـــوا أَن مَتـــى نَنبَعِـــث عَلـــى مِثلِهـــا تَـــذكُ نيرانُهـــا
وَلَـــولا كَراهَـــةُ سَـــفكِ الـــدِّماءِ لَعـــادَ لِيَثـــرِبَ أَديانُهـــا
وَيَثـــرِبُ تَعلَـــمُ أَنَّ النَّبـــي تَ راسٍ بِيَثـــرِبَ ميزانُهـــا
حِـــسانُ الوُجـــوهِ حِـــدادُ الـــسُيو فِ يَبتَـــدِرُ المَجـــدَ شُـــبّانُها
وَبِالـــشَّوطِ مِـــن يَثـــرِبٍ أَعبُـــدٌ سَـــتَهلِكُ فـــي الخَمـــرِ أَثمانُهـــا
يَهـــونُ عَلـــى الأَوسِ أَثمـــانُهُم إِذا راحَ يَخطِرُ نَشوانُها
أَتَـــتهُم عَـــرانينُ مِـــن مالِـــكٍ سِراعٌ إِلى الرَّوعِ فِتيانُها
وَقَـــد عَلِمـــوا أَنَّ مـــا فَلَّهُـــم حَديدُ النَّبيتِ وَأَعيانُها[1]

إن المتأمل في هذه الأبيات يلاحظ علاقة قيس المتينة بقومه وارتباطه بهم، ويصفهم بالفرسان والشجعان في المعارك، وأن سيوفهم تخيف الأعداء وتذهب عقولهم، وهناك الكثير من الأبيات والقصائد التي قالها قيس مفاخرا بها قبيلته، فالأيام التي كانت بين الأوس والخزرج كثيرة، وهو بمثابة الذي يحفظ ويسجل تلك الأيام لتبقى ذكراها سببا في المفاخرة بالقبيلة ومكانتها وإنجازاتها.

ثانيا: الغزل:

الغزل شيء محبب لنفوس الناس عامة، وللشعراء خاصة، فالشعراء يحبون أن يعبروا عن عواطفهم بالغزل، فيتغزلون بالمرأة وصفا وذكرا لصفاتها ومحاسنها، وقيس واحد من الشعراء الذين تغزلوا بالشعر وكثر في شعره الغزل، إلا أنه اتسم بالجدة وعدم الفحش والعفة، والمتأمل في شعر قيس يجد أن الغزل انحصر في مقدمات شعره، كذلك لا توجد قصيدة لقيس كان غرضها الأساسي الغزل، وإنما استعمله وسيلة فقط ولم يكن هدفا.

(١) الديوان، ص:٦٩-٧٣.

وسأتطرق هنا لذكر الحالات التي يذكر قيس فيها المرأة في شعره ممثلا لذلك بقصيدة واحدة للتوضيح:

١- ذكر الديار:

يقول قيس:

أَتَعرِفُ رَسماً كَاطِّرادِ المَذاهِبِ لَعَمرَةَ وَحشاً غَيرَ مَوقِفِ راكِبِ
دِيارَ الَّتي كادَت وَنَحنُ عَلى مِنىً تَحُلُّ بِنا لَولا نَجاءُ الرَّكائِبِ
تَبَدَّت لَنا كَالشَّمسِ تَحتَ غَمامَةٍ بَدا حاجِبٌ مِنها وَضَنَّت بِحاجِبِ
وَلَم أَرَها إِلّا ثَلاثاً عَلى مِنىً وَعَهدي بِها عَذراءُ ذاتَ ذَوائِبِ
وَمِثلُكِ قَد أَصبَيتُ لَيسَت بِكَنَّةٍ وَلا جارَةٍ وَلا حَليلَةِ صاحِبِ(١)

في هذه المقدمة يذكر قيس عمرة ويصورها بصورة توضح مكانتها، ويصور جمالها ويشبهها بالشمس التي غطى الغيم جزء منها، وأنها عفيفة وحيية ومصونة، ولولا اضطراره للسفر لجلس معها واقترب من مسكنها ليقيم فيه.

٢- استهلال القصائد:

كما نعلم أن ذكر النساء محبب للنفوس، لذلك يبدأ قيس قصائده بذكر النساء ليميل القلوب، ففي القصيدة التي قالها بعد ثأره لأبيه بدأها بالغزل فقال:

تَذَكَّرَ لَيلى حُسنَها وَصَفاءَها وَبانَت فَأَمسى ما يَنالُ لِقاءَها
وَمِثلِكِ قَد أَصبَيتُ لَيسَت بِكَنَّةٍ وَلا جارَةٍ أَفضَت إِلَيَّ حَياءَها(٢)

إن هذه القصيدة وإن كان هدفها الفخر بالنفس، إلا أن قيسا بدأها بمقدمة غزلية وفي فحواها يضمن الفخر بنفسه ليمهد لغرضه الرئيسي من هذه القصيدة وهو الفخر بالذات وأنه استطاع إمالة قلوب النساء له.

---

(١) الديوان، ص:٧٦-٨٠.

(٢) الديوان، ص: ٤١- ٤٢.

٣- ذكر الظعائن والحديث عن الرحيل:

قيس يسهب قليلا في وصفه المرأة عند ذكر الظعائن أو الحديث عن الرحيل، إذ يذكر الصفات الخُلقية والصفات الخَلقية أيضا، ففي إحدى قصائده يقول:

صَـرَمتَ اليَـومَ حَبلَـكَ مِـن كَنـودا لِتُبـدِلَ حَبلَهـا حَـبلاً جَديـدا
مِـنَ اللائـي إذا يَمـشينَ هَونـاً تَجَلبَـبنَ المَجاسِـدَ وَالبُـرودا
كَـأَنَّ بُطـونَهُنَّ سُـيوفُ هِنـدٍ إذا مـا هُـنَّ زايَلـنَ الغُمـودا
تَبَـدَّت لـي لِتَقتُلُنـي فَأَبـدَت مَعاصِـمَ فَخمَـةً مِنهـا وَجيـدا
وَوَجهـاً خِلتُـهُ لَمّـا بَـدا لـي غَـداةَ البَـينِ دينـاراً نَقيـدا (١)

يصف قيس في هذه المقدمة القطيعة، وكيف أن للمحبوبة القدرة على تجديد الحب والوصل، ويصف مشيتها ووقارها وجمال لباسها وبطنها الأبيض وفخامة معاصمها وجمال وجهها وعنقها.

ثالثا: الوصف:

الوصف من الأغراض الأساسية في قصائد الشعراء الجاهليين، سواء كان هذا الوصف حسيا أو معنويا، وهو دلالة على قوة ملاحظة الشاعر للأشياء من حوله وتجاوبه معها، ولم تخل قصائد قيس بن الخطيم من هذا الغرض أيضا، والمتأمل في شعره يجده يصف الكثير من الأشياء، وسأتطرق لبعض الأمثلة هنا:

- وصفه للسيف: يذكر أن السيف تكون بيضاء ناصعة قبل ملاقاة العدو، وبعد اللقاء تصبح حمراء بسبب الدماء، إذ يقول:

يُعَـرّينَ بيـضاً حـينَ نَلقـى عَـدُوَّنا وَيُغمَـدنَ حُمـراً نـاحِلاتِ المَـضارِبِ(٢)

- وصفه للحرب: يصف قيس الحرب بقوله:

---

(١) الديوان، ص: ١٤٥-١٤٦.

(٢) الديوان، ص: ٨٩.

جنبنـــا الحـــراب وراء الـــصريخ حتـــــى تقـــــصف مرانهـــــا

تـــراهن يخلجـــن خلـــج الـــدلاء تخـــــتلج النـــــزع أشـــــطانها[١]

- وصفه للكتيبة:

صـــبحناهم شـــهباء يبـــرق بيـــضها تبـــين خلاخيـــل النـــساء الهـــوارب[٢]

- وصفه للجيش:

جـــاءَت بَنـــو الأَوسِ عارِضـــاً بَـــرِداً تَحلِبُـــــهُ الـــــريحُ مُقـــــبِلاً حَلَبـــــا

أَرعَـــــنَ مِثـــــلَ الأَتِـــــيِّ أَعقَبَـــــهُ صَـــــوبُ مُلِـــــثٍّ يُـــــسَيَّلُ الحَـــــدَبا[٣]

- وصفه للفرس:

تَعـدو بِهِـم فـي الـرَوعِ كُـلُّ طُوالَـةٍ تَنـــضو الجِيـــادَ وَمِنهَـــبٍ غَـــرّافِ

رَبِـــــذٍ قَوائِمُـــــهُ شَـــــديدٍ أَســـــرُهُ صَـلتِ المُعَـذَّرِ ذي سَـبيبٍ ضـافِ[٤]

فالشاعر يصف الفرس بأنها سريعة وطويلة وقوية وشديدة وشعر الناصية فيها طويل، والكثير من الصفات التي امتازت بها الفرس وعرفت بها منذ أيام الجاهلية.

هذه بعض الأمثلة على استعمال قيس لغرض الوصف في شعره، وهناك الكثير من الأشياء التي وصفها قيس لم أذكرها هنا، فموضوعي هنا هو التمثيل وليس الإحصاء.

رابعا: الهجاء:

الهجاء أيضا من الأغراض التي نجدها في قصائد الشعر الجاهلي، وفي شعر قيس نجد الهجاء الساخر فقط دون أن يطعن بالشرف أو النسب، فنجده يقول:

أطاعـت بنـو عـوف أميـرا نهـاهم عن السلم حتّى كان أول واجب

---

(١) الديوان، ص: ٧٠.

(٢) الديوان، ص: ٩١.

(٣) الديوان، ص: ١٧٦.

(٤) الديوان، ص: ١٩٣–١٩٤.

أويــت لعــوف إذ تقــول نــساؤهم ويــرمين دفعــا: ليتنــا لــم نحــارب[1]

فقيس يسخر بهذه الأبيات من بني عوف عندما أطاعوا أميرهم وكان هو أول مقتول في المعركة، وأن نساءهم شاركن في الحرب جزعا ولوما لأزواجهن في المصيبة التي وقعت بهم، وفي موضع آخر يسخر من الخزرجيين بقوله:

معــــاقلهمْ آجــــامهم ونــــسائهمْ وأيماننا بالمشرفية معقلُ

كــأنَّ رؤوس الخــزرجيّينَ -إذْ بــدتْ كتائبنا تترى معَ الصُّبحِ-حنظلُ[2]

في هذه الأبيات يهجو قيس الخزرج وأنهم جبناء وأن رؤوسهم عند ظهور جيش الأوس كأنها حنظل.

خامسا: المدح:

كما نعلم أن الشاعر إذا هجا في شعره أحدا، فإنه في المقابل سيمدح آخرين، وهذا الغرض وجد كثيرا في الشعر العربي عموما، والجاهلي خصوصا، وكذا نجده في شعر قيس بن الخطيم، فقد قال في مدح خداش بعد ظفره بقاتل والده:

وسامحني فيها ابن عمرو بن عامر خداش فأدى نعمة وأفاءها[3]

وفي موضع آخر يمدح خداشا وقومه كذلك، فيقول:

لأُصَــرِّفَنَّ سِــوى حُذَيفَــةَ مِــدحَتي لَفَتى العَشِيِّ وَفارِسِ الأَجرافِ

مَــن لا يَــزالُ يَكُــبُّ كُــلَّ نَقيلَــةٍ وَزماءَ غَيرَ مُحاوِلِ الإِنزافِ

رَحــبُ المَبــاءَةِ وَالجَنــابِ مُوَطَّــأٌ مَأوىً لِكُلِّ مُعَصَّبٍ مِسوافِ

الــضارِبُ البَــيضَ المُــتَقَّنَ صُــنعُهُ يَومَ الهِياجِ بِكُلِّ أَبيَضَ صافي

إِن تَلــقَ خَيــلَ العــامِرِيِّ مُغيــرَةً لا تَلقَهُــــم مُتَعَنِّقَــــي الأَعــــرافِ

وَإِذا تَكــونُ عَظيمَــةٌ فــي عــامِرٍ فَهُوَ المُدافِعُ عَنهُمُ وَالكافي

---

(١) الديوان، ص: ٩٠.

(٢) الديوان، ص: ١٣٧-١٣٨.

(٣) الديوان، ص: ٤٥.

الـــواتِرونَ المُـــدرِكونَ بِتَـــبلِهِم وَالحاشِدونَ عَلى قِرى الأَضيافِ
تَعـدو بِهِـم فـي الـرَوعِ كُـلُّ طُوالَـةٍ تَنـضو الجِيـادَ وَمِنهَـبٍ غَـرّافِ
رَبِـذٍ قَوائِمُـهُ شَـديدٍ أَسـرُهُ صَـلتِ المُعَـذَّرِ ذي سَـبيبٍ ضـافِ
أَلفَيـتَهُم يَـومَ الهِيـاجِ كَـأَنَّهُم أُسُـدٌ بِبيـشَةَ أَو بِغـافِ رُوافِ[1]

فالشاعر هنا يمدح خداشا وفروسيته وكرمه ومكانته عند قومه، ويمدح قومه وقوتهم وخيولهم وفروسيتهم.

سادسا: الحكمة:

إن الحكمة نجدها عند الشعراء الذين سادوا على قومهم أو عاشوا طويلا أو كانوا أصحاب علم ومعرفة أكثر من غيرهم، فيذكرون في شعرهم شيئا من حكمهم من خلال تجاربهم المختلفة، وقيس بن الخطيم شاعر مثقف ذو عقل راجح وكانت له تجارب كثيرة في حياته، ومن الحكم التي قالها في شعره قوله:

وَبَعـضُ القَـولِ لَـيسَ لَـهُ عِيـاجٌ كَمَخضِ الماءِ لَيسَ لَهُ إِتاءُ
يَـصوغُ لَـكَ اللِـسانُ عَلـى هَـواهُ وَيَفضَحُ أَكثَرَ القيلِ البَلاءُ
وَمـا بَعـضُ الإِقامَـةِ فـي دِيـارٍ يَكـونُ بِهـا الفَتـى إِلّا عَنـاءُ
وَلَـم أَرَ كَـامِرِئٍ يَـدنو لِخَـسفٍ لَـهُ فـي الأَرضِ سَـيرٌ وَانتِـواءُ
وَبَعـضُ خَلائِـقِ الأَقـوامِ داءةٌ كَـداءِ الكَـشحِ لَـيسَ لَـهُ شِـفاءُ[2]

سابعا: العتاب:

هذا الغرض لم نجده في شعر قيس إلا في بيتين قالهما عتابا لقومه عند وقوع سهام الخزرج في صدره، إذ يقول:

كَـم قـائِمٍ يُحزِنُـهُ مَقتَلـي وَقاعِـدٍ يَرقُبُنـي شـامِتُ

(١) الديوان، ص: ١٩٠-١٩٤.

(٢) الديوان، ص:١٥١-١٥٤.

أَبلِـــغ خِداشـــاً أَنَّنـــي مَيِّـــتٌ كُـــلُّ اِمـــرِئٍ ذي حَـــسَبٍ مائِـــتُ[1]

دراسة فنية لشعره:

سأتناول ديوان قيس بن الخطيم من الناحية الفنية من عدة زوايا:

أولا: **من حيث اللغة**

يخلو شعر قيس من الألفاظ العامية، ونجد فيها شيء من الغموض في المعنى ورقته، فمثلا قوله:

وإنّـيَ فـي الحـرب الـضَّرُوسِ مُوكَّـلٌ بإقْـدامِ نَفْـسٍ مـا أُرِيـدُ بَقاءهـا
إذا سَـقِمَتْ نَفْـسي إلـى ذي عَـداوةٍ فـإنّي بِنَـصْلِ الـسّيْفِ بـاغٍ دواءهـا
متـى يـأتِ هذا الموتُ لا تَبْقَ حاجـةٌ لنفـسِيَ إلا قـد قـضَيْتُ قـضاءها
وكانت شَجاً في الحَلْقِ ما لم أبُؤْ بها فأُبْـتُ بـنفسٍ قـد أصـبتُ دواءهـا
وقَـد جَرَّبَـتْ منّـي لَـدى كـلّ مـأْقِطٍ دُحَـيٌّ إذا مـا الحَـرْبُ أَلْقَـتْ رِداءهـا
وإنّـا إذا مـا مُمْتَـرُوا الحَـرْبِ بَلّحُـوا نُقـيمُ بأسْـبادِ العَـرِينِ لواءهـا
ونُلْقِحُهـا مَبْـسُورةً ضَـرْزَنِيّةً بأسْـيافِنا حتّـى نُـذِلَّ إباءهـا
وإنّـا مَنَعْنـا فـي بُعَـاثٍ نِـساءنا ومـا مَنَعَـتْ مِ المخْزِيـاتِ نِـساءها[2]

ثانيا: من حيث الأسلوب:

تعددت الأساليب في شعر قيس وكثرت، وسأذكر أكثرها ورودا، مثل أسلوب التوكيد، وقد ورد في الكثير من أبياته، من ذلك قوله:

سـاقوا الرُّهـونَ وآسـونا بأنفـسهمْ عنـدَ الـشدائد قـدْ بـرُّوا وقـدْ كرمـوا[3]

وأيضا أسلوب الشرط، ومن ذلك قوله:

---

(١) الديوان، ص: ٢١١.

(٢) اليدوان، ص:١٠-١١.

(٣) الديوان، ص:١٤٤.

متى ما أتيت الأمر من غير بابه ضللت وإن تدخل من الباب تهتد[١]

كذلك أسلوب النهي، كما في قوله:

إن الفضاء لنا فلا تمشوا به أبدا بعالية ولا بذنوب[٢]

وأيضا أسلوب الطلب، مثل قوله:

فقل للملتقى عرض المنايا توق وليس ينفعك اتقاء[٣]

ثالثا: الموسيقى والإيقاع :

الشعر تحكمه بنية إيقاعية وموسيقى داخلية وخارجية تجعله يحلو في آذان سامعيه، فتطرب آذانهم وتشجن أنفسهم ويترنمون بغنائه، وشعر قيس بن الخطيم مما أقبل المغنون عليه ترنما وغناء، لما فيه من النغم الجميل.[٤]

إن المتأمل في شعر قيس يجد أنه استعمل سبعة أبحر من بحور الخليل ابن أحمد، فكان أكثرها الطويل ثم الكامل والوافر بنفس النسبة يليهن المنسرح والمتقارب والسريع والبسيط، كذلك كان أكثر استخدامه للقوافي المطلقة، ومن ذلك قوله:

متى يأت هذا الموت لا تبق حاجة لنفسي إلا قد قضيت قضاءها[٥]

وقوله:

حسان الوجوه حداد السيو ف يبتدر المجد شبانها[٦]

وأيضا نجد أن قصائد قيس بن الخطيم امتازت بموسيقاها الداخلية، فنجد أن الأبيات عنده مقسمة وقابلة للغناء، كقوله:

---

(١) الديوان، ص٧٤.

(٢) الديوان، ص: ٢٠.

(٣) الديوان، ص: ١٠٠.

(٤) الأغاني، ج.٣، ص:١٤.

(٥) الديوان، ص:١٠.

(٦) الديوان، ص: ٢٩.

فـــنحن النـــازلون علـــى المنايـــا ونحـــن الآخـــذون بكـــل ثغـــر[١]

وأيضا يعمد أحيانا لاستعمال المقابلة في البيت الواحد، كقوله:

يعـرَّين بيـضا حـين نلقـى عـدونا ويغمـدن حمـرا نـاحلات المـضارب[٢]

وفي بيت آخر نجده يرد الصدر على العجز، فيقول:

معـــاقلهم آجـــامهم ونـــساؤهم وأيماننـــا بالمـــشرفية معقـــل[٣]

ويستعمل قيس التكرار أحيانا في البيت الواحد، كما في قوله:

غنـــي الـــنفس مـــا اســـتغنى غنـــي وفقـــر الـــنفس مـــا عمـــرت شـــقاء[٤]

وقوله:

متـــى مـــا تقُـــد بالباطـــل الحـــق يأبـــه وإن قدت بالحق الرواسي تنقد[٥]

نقائض قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت:

المناقضة في الشعر هي قول شاعر ما قصيدة يفخر بها أو يهجو، فيأتي شاعر آخر فيرد عليه مفتخرا أو هاجيا أيضا على نفس نمط الشاعر الأول من حيث الموضوع والبحر والقافية والروي[٦].

سأتناول في هذا المبحث نموذجًا واحد من قصائد المناقضة من أصل ست نقائض كانت بين حسان بن ثابت وقيس بن الخطيم، والذي كان يدعم وجود هذه النقائض بين الشعراء هو استمرار الأيام والحروب بين الأوس والخزرج، ففي يوم

---

(١) الديوان، ص: ١٢٤.

(٢) الديوان، ص: ٤٣.

(٣) الديوان، ص: ٨١.

(٤) الديوان، ص:١٠١.

(٥) الديوان، ص:٧٤.

(٦) تاريخ النقائض في الشعر العربي، ص:٣ .

الربيع قال حسان بن ثابت قصيدة من البحر المتقارب في سبعة عشر بيتا متغزلا فيها بليلى أخت قيس بن الخطيم[١]، يقول حسان:

لَقَـــد هـــاجَ نَفـــسَكَ أَشـــجانُه ... وَعاوَدَهـــا اليَـــومَ أَديانُهـــا
تَـــذَكَّرُ لَيلـــى وَمـــا ذِكرُهـــا ... وَقَـــد قُطِعَـــت مِنـــكَ أَقرانُهـــا
وَحَجَّـــلَ فـــي الـــدارِ غِربانُهـــا ... وَخَـــفَّ مِـــنَ الـــدارِ سُـــكّانُها
وَغَيَّرَهـــا مُعـــصِراتُ الرِّيـــاحِ ... وَسَـــحُّ الجَنـــوبِ وَتَهتانُهـــا
وَدَوِّيَّـــةٍ سَبـــسَبٍ سَـــملَقٍ ... مِـــنَ البيـــدِ تَعـــزِفُ جِنّانُهـــا
قَطَعـــتُ إِذا خَـــبَّ جـــاري الـــسَّرابِ ... بِهَوجـــاءَ يَلعَـــبُ شَـــيطانُها
وَســـاءَلتُ مَنزِلَـــةً بِـــالحِمى ... وَقَـــد ظَعَـــنَ الحَـــيُّ مـــا شـــانُها
مَهـــاةً مِـــنَ العَـــينِ تَمـــشي بِهـــا ... وَتَتبَعُهـــا ثَـــمَّ غِزلانُهـــا
فَعَيَّـــت وَجـــاوَبَني دونَهـــا ... بِمـــا راعَ قَلبِـــيَ أَعوانَهـــا
وَيَثـــرِبُ تَعلَـــمُ أَنّـــا بِهـــا ... إِذا أَلـــبَسَ الحَـــقُّ ميزانُهـــا
وَيَثـــرِبُ تَعلَـــمُ أَنّـــا بِهـــا ... إِذا قَحَـــطَ القَطـــرُ نُوآنُهـــا
وَيَثـــرِبُ تَعلَـــمُ أَنّـــا بِهـــا ... إِذا خافَـــتِ الأَوسَ جيرانُهـــا
وَيَثـــرِبُ تَعلَـــمُ إِذ حارَبَـــت ... بِأَنّـــا لَـــدى الحَـــربِ فُرســـانُها
وَيَثـــرِبُ تَعلَـــمُ أَنَّ النَّبيـــتَ ... عِنـــدَ الهَزاهِـــزِ ذُلّانُهـــا
نُبِـــت بِالنَّبيـــتِ وَأَشـــياعِها ... مَـــنِ اِن أوعِـــدَت قَـــطُّ أَوطانُهـــا
فَكَيـــفَ إِذا نازَلَتهـــا لُيـــو ... ثُ غَريـــفٍ وَشِـــبلانُها
مَتـــى تَرَنـــا الأَوسُ فـــي بيـــضِنا ... نَهُـــزُّ القَنـــا تَخـــبُ نيرانُهـــا
وَتُعـــطِ المَقـــادَ عَلـــى رَغمِهـــا ... وَيَنـــزِل مِـــنَ الهـــامِ عِـــصيانُها
وَيَثـــرِبُ تَعلَـــمُ أَنَّ النَبيـــتَ ... لَيـــسَت بِـــشَيءٍ وَأَعوانُهـــا

(١) الأغاني، ج.٣ ،ص:١٤.

فَـــلا تَخفَـــرَن وَالِـــتَمِس مَلجَـــأً فَقَـــد عـــادَ لِـــلأَوسِ أَديانُهـــا
وَنَحـــنُ إِذا حارَبَـــت عـــامِرٌ أَمـــامَ الكَتيبَـــةِ أَعيانُهـــا
وَنَحـــنُ إِذا نَزَلَـــت مُعـــضِلاتٌ تَحُـــسُّ القَبائِـــلَ إِخوانُهـــا [1]

في الأبيات الست الأولى من القصيدة يفخر حسان بقومه وقبيلته الخزرج بأنهم أهل العدل والكرم والسخاء وأهل الشجاعة في يثرب، فيرد عليه قيس بقصيدة من البحر المتقارب أيضا في تسعة عشر بيتا، يهدم فيها المعاني التي ذكرها حسان في قصيدته باستعمال المقابلة، فيفخر بقومه وقبيلته الأوس وشجاعتهم وفروسيتهم، استفتحها قيس بالتغزل في عمرة زوجة حسان بن ثابت[2]، يقول قيس:

أَجَـــدَّ بِعَمـــرَةَ غُنيانُهـــا فَتَهجُـــرَ أَم شَـــأنُنا شـــانُها
وَإِن تُمـــسِ شَـــطَّت بِهـــا دارُهـــا وَبـــاحَ لَـــكَ اليَـــومَ هِجرانُهـــا
فَمـــا رَوضَـــةٌ مِـــن رِيـــاضِ القَطـــا كَـــأَنَّ المَـــصابيحَ حَوذانُهـــا
بِأَحـــسَنَ مِنهـــا وَلا مُزنَـــةٌ دَلـــوحٌ تَكَـــشَّفُ أَدجانُهـــا
وَعَمـــرَةُ مِـــن سَـــرَواتِ النِـــسا ءِ تَـــنفَحُ بِالمِـــسكِ أَردانُهـــا
وَنَحـــنُ الفَـــوارِسُ يَـــومَ الرِّبـــي عِ قَـــد عَلِمـــوا كَيـــفَ فُرســـانُها
جَنَبنـــا الحِـــرابَ وَراءَ الـــصَّري خِ حَتّـــى تَقَـــصَّفَ مُرّانُهـــا
فَلَمّـــا اِســـتَقَلَّ كَلَيـــثِ الغَـــري فِ زانَ الكَتيبَـــةَ أَعوانُهـــا [3]

وفي الأبيات الأخرى من قصيدة حسان يهجو فيها الأوس ويصفهم بالخضوع والضعف والذل، بخاصة حين يرون فرسان الخزرج بحماسهم فيخافون، فيرد عليه قيس ينفي ويناقض ما قاله حسان، وأن الخزرج هم الذين لاقوا الشقاء

(١) ديوان حسان بن ثابت، ص: ٣١٢-٣١٤.
(٢) الأغاني، ج.٣، ص:١٣.
(٣) ديوان قيس بن الخطيم، ص:٢٤-٢٧.

والذل على يد الأوس، وهم من تشتت شملهم وانهزمت كتيبتهم وينفي عنهم صفة العدل، إذ يقول:

وَلاقَـــى الـــشَّقاءَ لَـــدى حَربِنـــا دُحَـــيٌّ وَعَـــوفٌ وَإِخوانُهـــا
رَدَدنـــا الكَتيبَـــةَ مَفلولَـــةً بِهـــا أَفنُهـــا وَبِهـــا ذانُهـــا
وَقَـــد عَلِمـــوا أَن مَتـــى نَنبَعِـــث عَلـــى مِثلِهـــا تَـــذكُ نيرانُهـــا
وَلَـــولا كَراهَـــةُ سَـــفكِ الـــدِّماءِ لَعـــادَ لِيَثـــرِبَ أَديانُهـــا
وَيَثـــرِبُ تَعلَـــمُ أَنَّ النَّبـــي تَ راسٍ بِيَثـــرِبَ ميزانُهـــا (١)

وقد مدح شباب الأوس واصفا قوتهم ووسامتهم مفاخرا ببسالتهم وشجاعتهم، إذ يقول:

حِـــسانُ الوُجـــوهِ حِـــدادُ الـــسُّيو فِ يَبتَـــدِرُ المَجـــدَ شُـــبّانُها
وَبِالـــشَّوطِ مِـــن يَثـــرِبٍ أَعبُـــدٌ سَـــتَهلِكُ فـــي الخَمـــرِ أَثمانُهـــا
يَهـــونُ عَلـــى الأَوسِ أَثمـــانُهُم إِذا راحَ يَخطِـــرُ نَـــشوانُها
أَتَـــتهُم عَـــرانينُ مِـــن مالِـــكٍ سِـــراعٌ إِلـــى الـــرَّوعِ فِتيانُهـــا
وَقَـــد عَلِمـــوا أَنَّ مـــا فَلَّهُـــم حَديـــدُ النَّبيـــتِ وَأَعيانُهـــا"(٢)

**

(١) الديوان، ص: ٢٧-٢٨.

(٢) الديوان، ص:٢٩.

خاتمة البحث

الحمد لله الذي أعانني على إكمال هذا البحث ويسره لي، والذي كان حول "شخصية الشاعر قيس بن الخطيم في شعره"، وقد تحدثت فيه عن نشأته وقبيلته وموقفه من الإسلام ومقتله والحروب التي خاضها ودوره فيها، ثم ركزت الحديث حول شعره وموضوعات شعره ومنزلته الشعرية والخصائص الفنية لشعره.

وقد خلصت إلى عدة نتائج، أهمها:

- أن الظروف التي نشأ فيها قيس كان لها كبير الأثر في شخصيته العلمية والجسمانية.
- أن للأيام التي كانت بين الأوس والخزرج دورًا كبيرًا في زيادة الشعراء وقول الشعر وتطوره.
- أن وجود المنافس للشاعر يقوي من جودة الشعر، لما يوجد بين الشاعرين من منافسة ورغبة ليكون أفضل من الآخر في قوله الشعر.
- قضية الثأر عامل أساسي لنشوب الحروب بين الأوس والخزرج.
- امتاز شعر قيس بالقوة والرصانة وحاز على إعجاب النابغة، وهذه شهادة على جودة شعر قيس .
- يعد شعر قيس مرجعا تاريخيا لمعرفة أيام الأوس والخزرج والأحداث التي كانت بين القبيلتين.

وختامًا فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، وأرجو أن ينال هذا البحث استحسان قارئيه من محبي الأدب ومتذوقيه.

الدراسات السابقة:

١- العبادلة، ياسين عبد الرحمن علي، *قيس بن الخطيم: حياته وشعره*، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة أم درمان الإسلامية.

٢- العجمي، حمد عبيد، حرب الكلام: نقائض قيس بن الخطيم وحسان بن ثابت قبل الإسلام، مجلة كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

٣- عواد، عبد الله أحمد عيال، الصورة الفنية في شعر قيس بن الخطيم، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الأردن.

**

المصادر والمراجع

١- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩.
٢- أحمد الشايب، تاريخ النقائض في الشعر العربي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٦.
٣- الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٩.
٤- الجمحي، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.
٥- د.ر. بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤.
٦- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وشرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٠.
٧- ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٦٧.
٨- عفيف عبد الرحمن، الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٤.
٩- الفاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، المكتبة البولسية، بيروت.
١٠- المرزباني، معجم الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠.

* * *